التكامل بين علمي التفسير واللغة

رضوان جمال الأطرش* ومنجد مصطفى بهجت**

ملخص بحث

تهدف هذا الدراسة إلى إبراز جوانب التكامل بين علمي التفسير واللغة، وتندرج مثل هذه الدراسات ضمن الدراسات القرآنية واللغوية الهادفة، والتي تسعى لتأصيل علمي لرأب الصدع بين العِلْمين، وإعادة الصلة بين مناهج التفسير واللغة، وتطويرها، كي تصبح أداة فاعلة لفهم سليم لكتاب الله عز وجل، ذلك أن دلالة الخطاب الإلهي لا يمكن إدراكها وتذوق معانيها ومغازيها إلا من خلال امتلاك ناصية اللغة. وقد اعتمد الباحثان في تحقيق هذا الهدف على المنهج الاستقرائي والتحليلي وذلك لتوظيف اللغة في العملية التفسيرية بوصفها أداة أصيلة لا يمكن الاستغناء عنها، وقد وصل الباحثان إلى أن اللغة هي جسم التفسير، وعليه فإن العلاقة بينهما علاقة وطيدة لا يمكن فصل أحدها عن الآخر.

الكلمات المفتاحية: التفسير، اللغة، التكامل، توظيف اللغة، العلاقة.

Abstract

This study falls in the field of Quranic studies and linguistics and it aims at highlighting aspects of integration between science of exegesis and linguistics. Therefore, it seeks to lay principles to integrate these subjects and to reestablish and develop links between methods of exegesis and linguistics for the purpose of becoming an effective tool for gaining a sound understanding of the Book of Allah (swt). The reason for believing so is because it is not possible to capture the

---

*أستاذ مشارك، قسم القرآن والسنة، كلية معارف الوحي والعلوم الإنسانية، الجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا.

**أستاذ، قسم اللغة العربية وآدابها، كلية معارف الوحي والعلوم الإنسانية، الجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا.

الجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا **مجلة الإسلام في آسيا**
العدد الخاص الأول، مارس 2011م

understanding of the divine discourse and its meaning and subtleties except by having a perfect mastery of the language. In realizing the objective of this research, the researchers relied on analytical approach and inductive method by using linguistics as an indispensable, original toll in the process of interpreting. The researchers concluded that language is the body of interpretation; therefore, the relationship between interpretation and language is very close and inseparable.

Key words: Exegeses of The Quran, Language, Integration, Utilization Of Language, Relation.

Abstrak

Kajian ini termasuk dalam bidang pengajian al-Quran dan linguistik dan ia bertujuan untuk menonjolkan aspek-aspek integrasi antara sains tafsiran dan linguistik. Oleh itu, ia bertujuan untuk meletakkan prinsip-prinsip untuk mengintegrasikan mata pelajaran ini dan untuk membina dan mencipta dan membangunkan hubungan antara kaedah tafsiran dan linguistik untuk tujuan menjadikannya alat yang berkesan untuk mendapat pemahaman yang kukuh tentang Kitab Allah (swt). Sebab untuk mempercayai sedemikian adalah kerana ia adalah tidak mungkin untuk menguasai kefahaman wacana ilahi dan makna yang tersirat kecuali dengan mempunyai penguasaan bahasa yang sempurna. Untuk merealisasikan matlamat kajian ini, penyelidik bergantung kepada pendekatan analitikal dan kaedah induktif dengan menggunakan linguistik sebagai tol asal dan tidak boleh diketepikan dalam proses pentafsiran. Para penyelidik menyimpulkan bahawa bahasa adalah badan tafsiran; oleh itu, hubungan antara tafsiran dan bahasa adalah sangat rapat dan tidak boleh dipisahkan.

Kata Kunci: Penafsiran Quran, Bahasa, Integrasi, Penggunaan bahasa, Hubungan.

تمهيد

في العلاقة بين العربية والعلوم الإسلامية

إن اختيار الله ــ ﷿ ــ اللغة العربية لوحي الله تعالى ورسالته الأخيرة إلى البشرية، يعني أنها كانت في زمن نزول الوحي، القرآن العظيم، أفصح اللغات، وأصفاها وأرقاها، وأكثرها قدرة على استيعاب أحاديث الوحي ومضامينه، وقيمه وتعاليمه، بما تمتلكه من خصائص ومميزات، وتمتاز به من ثراء ومقومات، حيث بلغت في ذلك العصر أعلى مستوياتها اللفظية والتعبيرية، بما جعلها أرقى اللغات وأقدرها على التلقي والبيان والاستيعاب والتأثير.

وقد تعهد الله تعالى بحفظ هذه اللغة وبقائها خالدة وفق ما جاءت به نصوص الوحي من السماء، إذ نزول القرآن بهذه اللغة، وكونه كتابا عربيا يفهم من خلال معهود العرب في الخطاب، يعني أن هذه اللغة خالدة بخلود القرآن وحفظه ودوامه ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُون﴾ [الحجر: 9]، مما يضمن لها البقاء والاستمرار، ويمنح لأصحابها المنعة والقوة والوحدة، ويؤكد أن هذه اللغة أراد لها رب العزة أن تكون عالمية شاملة، ما دام الوحي الذي نزل بها هو للبشرية عامة ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ [سبأ: 28]، والقرآن الكريم وصف نفسه بأنه عربي، وأكد ذلك في أكثر من آية وسورة ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِين﴾ [الشعراء: 193-195]، **وعروبة القرآن** أحد أهم أوصافه، لأن العربية لسان الرسول الخاتم فهو عربي الأصل واللسان، وقد اختار الله تعالى أن يخاطب البشرية خطابه الأخير بهذا اللسان العربي ليصبح لسانا ثقافيا عالميا، "فلم يتكلم

الرسول إلا بكلام قد حُفَّ بالعصمة وشيد بالتأييد ويسير بالتوفيق"[1] أو لم يقل الله تعالى: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى﴾ [النجم: 3-4].

ومن جهة أخرى فإن اللسان العربي هو شعار الإسلام كما يقول شيخ الإسلام ابن تيميه في كتاب اقتضاء الصراط المستقيم، " فإن نفس اللغة العربية من الدين، ومعرفتها فرض واجب، فإن فهم الكتاب والسنة فرض، ولا يفهم إلا بفهم اللغة العربية، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب"[2]. وبهذا يتضح أن العلاقة بين اللغة العربية وعلوم الإسلام من تفسير وحديث وفقه وأصول وغيرها من العلوم علاقة متينة جداً لمن أراد أن يشتغل بأي من العلوم السابقة. فالعلاقة بين اللغة العربية وعلوم الإسلام تقوم على التكامل، لأنه من غيرها لا تقوم هذه العلوم على قوائمها، فهي علاقة ضرورية للدين لقيام الدين ذاته.

علم التفسير لغة واصطلاحاً:

التفسير في اللغة إنما هو الإيضاح والتبيين والكشف[3]، وقد جاءت كلمة التفسير في هذا المعنى في الآية الكريمة: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ [الفرقان:33] أي بياناً وتفصيلاً.

ولقد عرّف الإمام الزركشي في كتابه البرهان علم التفسير بقوله: علم يبحث فيه عن أحوال القرآن المجيد من حيث دلالتُه على مراد الله تعالى، بقدر

---

[1] أبو عثمان عمرو بن بحر، **البيان والتبيين**، تحقيق: فوزي عطوي (بيروت: دار صعب، ط1، 1968م) ص221.

[2] أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني، **اقتضاء الصراط المستقيم**، دراسة وتحقيق: ناصر عبد الكريم العقل، (بيروت: دار عالم الكتب، ط7، 1419هـ/ 1999م) ص53.

[3] علي بن محمد بن علي الجرجاني، **التعريفات**، تحقيق: إبراهيم الأبياري، (بيروت: دار الكتاب العربي، ط1، 1405هـ) ص87، باب التاء.

الطاقة البشرية[4]. وعرفه الجرجاني: بأنه توضيح معنى الآية وشأنها وقصتها والسبب الذي نزلت فيه بلفظ يدل عليه دلالة ظاهرة[5]. فهو: العلم الذي يعين على كشف وبيان معاني آيات القرآن الكريم، واستخراج الأحكام منها. وقد اختلف العلماء في بيان الفروق بين التفسير والتأويل على عدد كبير من الأقوال ليس هذا محلها ولكن ننقل خلاصتها على الشكل الآتي:

يقول أبو هلال العسكري: "أن التفسير: هو الإخبار عن أفراد آحاد الجملة، والتأويل: الإخبار بمعنى الكلام، وقيل: التفسير أفراد ما انتظمه ظاهر التنزيل، والتأويل: الإخبار بغرض المتكلم بكلام، وقيل: التأويل: استخراج معنى الكلام لا على ظاهره، بل على وجه يحتمل مجازاً أو حقيقة. ومنه يقال: تأويل المتشابه، وتفسير الكلام إفراد آحاد الجملة، ووضع كل شئ منها موضعه، ومنه أخذ تفسير الأمتعة بالماء[6]، ثم أكمل حديثه، فقال: "وأصل التأويل في العربية من ألت إلى الشئ أؤول إليه إذا صرت إليه، وقال تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾ [آل عمران: 7] ولم يقل تفسيره، لأنه أراد ما يؤول من المتشابه إلى المحكم."[7] ومنه ما قال به صاحب اللسان: "والتَّفْسير كَشف المُراد عن اللفظ المُشْكل والتأْويل ردّ أَحد المحتملين إلى ما يطابق الظاهر"[8].

---

[4] محمد بن بهادر بن عبد الله الزركشي أبو عبد الله، **البرهان في علوم القرآن**، تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم (بيروت: دار المعرفة، 1391هـ) ج1، ص13.

[5] الجرجاني، **التعريفات**، ص87، باب التاء.

[6] أبو هلال العسكري، الحسن بن عبد الله بن سهل بن سعيد، **الفروق في اللغة**، حققه وعلق حواشيه ووضع فهارسه: جمال عبد الغني مدغمش، (بيروت: مؤسسة الرسالة، ط1، 1422هـ/2002م) ص74-75.

[7] أبو هلال العسكري، الحسن بن عبد الله بن سهل بن سعيد، **الفروق في اللغة**، ص74-75.

[8] محمد بن مكرم بن منظور الأفريقي المصري، **لسان العرب**، (القاهرة: دار الحديث، 1423هـ/ 2003م) ج7، ص101. مادة فسر.

ويوضح الذهبي هذا الفرق بين العلمين فيقول: "التفسير ما يتعلق بالرواية والتأويل ما يتعلق بالدراية، وقيل: التفسير هو بيان بيان المعاني التي تستفاد من وضع العبارة، والتأويل هو بيان المعاني التي تستفاد بطريق الإشارة. ثم ينقل عن الراغب الاصفهاني قوله: التفسير أعم من التأويل، واكثر ما يستعمل التفسير في الألفاظ والتأويل في المعاني"[9].

عنايته عليه الصلاة والسلام والصحابة بالتفسير

يُعد الحديث عن علم التفسير من أشرف الأحاديث لأنه من العلوم المهمة والعظيمة لكونه متعلقاً بكتاب الله وتفسيره، وبيان مراده للناس، وإيضاح مقاصده ومراميه للعباد، وهو بذاته من أجل العلوم وأعلاها شأنا؛ لذا اعتنى به المسلمون عناية خاصة، وأولوه اهتماماً بالغاً. كما يعتبر التفسير من أقدم علوم القرآن نشأة، فقد واكب التفسير نزول الوحي بالقرآن على النبي ﷺ، وكانت تلك ضرورة تفرضها حاجة الناس إلى نوع من البيان يتناول ما غمض من بعض نصوصه، وكان المبين الأول للقرآن الكريم النبي ﷺ لقوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: 44].

قال ابن تيمية: "يجب أن يعلم أن النبي ﷺ بين لأصحابه معاني القرآن، كما بين لهم ألفاظه، فقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: 44] يتناول هذا وهذا"[10]. فهو الذي تحمل

---

[9] محمد حسين الذهبي، **التفسير والمفسرون**، (القاهرة: مكتبة وهبة، ط7، 1421هـ/2000م) ج1، ص16.

[10] أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني، **مجموع فتاوى ابن تيمية**، دراسة وتحقيق: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، (المدينة المنورة: مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، 1416هـ/1995م) ج5، ص225. وانظر: أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني، **مقدمة في أصول التفسير**، (بيروت: دار مكتبة الحياة، 1490هـ/ 1980م) ص4.

عبء هذا العمل التفسيري الضخم، ولا شك أن من عاصر نزول الوحي، وعاصر من نزل عليه الوحي، وعاصر خير من فسر وطبق الوحي – وهو خاتم المرسلين – أعرف بمقصود كتاب الله وتفسير ما جاء به.

فلما انتقل النبي ﷺ إلى الرفيق الأعلى كان الأمر في البيان يرد إلى ما أثر عنه في ذلك وإلى اجتهادات الصحابة الذين عايشوا التنزيل وأحاطوا بأسباب نزوله، وبرز من بين هؤلاء الصحب في هذا الميدان: عبد الله بن عباس –رضي الله تعالى عنهما– فكانت أغلب جهوده منصرفة إلى هذ الجانب، وأعانه على هذا ما كان له من علم استقاه من الرسول ﷺ، ومن كبار الصحابة، بالإضافة إلى معرفته الواسعة بأحوال العرب ولغتهم، وأخبار أهل الكتاب من اليهود والنصارى، كما رأينا ذلك مفصلاً في معالم منهجه في التفسير، ثم كانت مدرسة مكة التي تنسب إليه، ومن تتلمذ له من أعلامها، قال ابن تيمية: –رحمه الله تعالى– أعلم الناس بالتفسير أهل مكة، لأنهم أصحاب بن عباس: كمجاهد، وعطاء بن أبي رباح، وعكرمة مولى بن عباس، وسعيد بن جبير، وطاووس، وغيرهم كما في الإتقان[11]، فكان ابن عباس – رضي الله تعالى عنهما– أول من خطا بالتفسير من دائرة المأثور وحده إلى دائرة الاستعانة بلسان العرب فيما لم تتعرض له المأثورات، خلال القرن الأول.ومن هنا بدأ التكامل الحقيقي الفاعل بين اللغة العربية والتفسير.

ولا شك أيضاً أن الصحابة رضوان الله عليهم لم يكونوا على درجة واحدة في فهم مقصود القرآن الكريم، كما لم يكونوا كذلك على درجة واحدة

---

[11] جلال الدين السيوطي عبد الرحمن بن أبي بكر، **الإتقان في علوم القرآن**، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1394هـ/ 1974م) ج2، 323.

في تلقِّيهم عن رسول الله ﷺ، فإن بعضهم تلقاه منه مباشرة، وبعضهم تلقاه عن طريق غيره من الصحابة.

ومن خلال آيات التدبر نستنتج أن الصحابة رضي الله عنهم كان لهم دور في الوصول إلى المعاني، وأن الرسول ﷺ لم يفسر القرآن كاملاً لهم، وإلا انتهت دواعي التدبر والتفكر، ووقف العقل عن التعقل إلى حد يعجز عن الإدلاء بدلوه. وهذه حكمة بالغة أراد الله بالأمة بها خيراً. لتبقى مع القرآن ومعانيه في كل وقت وحين تتغير فيه الظروف والأحوال كل يوم مرات ومرات. واكتفى النبي ﷺ بتفسيره القرآن لصحابته على ما تقف عليه أفهامهم، كتبيين المجمل وتخصيص العام وتقييد المطلق. مثال ذلك:

- فمن بيانه للمجمل؛ كقوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ [البقرة: 43]، فإن إقامة الصلاة من مجمل القرآن وبينها بفعله رسول الله ﷺ حيث قال: «صلوا كما رأيتموني أصلي»[12]، ثم بين مواقيت الصلوات الخمس وعدد ركعاتها وكيفيتها.

- ومن بيانه للمشكل تفسيره للخيط الأبيض والخيط الأسود من الفجر بأنه بياض النهار وسواد الليل. قال النبي ﷺ: «إنما ذلك بياض النهار وسواد الليل»[13].

- ومن تخصيصه للعام تخصيص معنى الظلم بالشرك في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ [الأنعام: 82].

---

[12] محمد بن حبان بن أحمد أبو حاتم التميمي البستي، **صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان**، تحقيق: شعيب الأرنؤوط (بيروت: مؤسسة الرسالة، ط2، 1414هـ/1993م) ج5، ص503. قال شعيب الأرنؤوط: إسناده صحيح على شرط البخاري.

[13] ابن حبان، صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان، ج8، ص242. قال شعيب الأرنؤوط: إسناده صحيح على شرط الشيخين.

أخرج البخاري بسنده عن عبد الله ﵁ قال: لما نزلت: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ﴾. شق ذلك على المسلمين فقالوا: يا رسول الله أينا لا يظلم نفسه؟ قال: «ليس ذلك، إنما هو الشرك، ألم تسمعوا ما قال لقمان لابنه وهو يعظه: ﴿يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: 13]»[14].

ومهما يكن من أمر، فإن الروايات التفسيرية المنقولة عن الصحابة محدودة وقليلة جداً، وهذا لا يرجع إلى قلة اهتمامهم بالقرآن أو نسيانهم له وانشغالهم بغيره، وإنما لأنهم كانوا يفسرون القرآن تفسيراً عملياً بحسب ما تقتضيه الحوادث والوقائع، ومن ناحية أخرى، لسلامة لغة القوم وصفاء عقيدتهم، "ولهذا كان النزاع بين الصحابة في تفسير القرآن قليلاً جداً"[15].

اللغة العربية ومكانتها في الإسلام

اللغة العربية لغة فذة، لا تشبه لغة من اللغات، ولا تشبهها لغة من اللغات، فهي نسيج وحدها؛ فهي اللغة التي علمها اللهُ آدمَ ﵇، وهي اللغة التي يتخاطب بها أهل الجنة فيما بينهم، وهي اللغة التي نزل بها الوحي الإلهي على قلب سيدنا محمد ﷺ.

قال الله ﷾: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾[16]، فهي لغة تغذي العقل، واستحقت التكريم بأن تكون لغة الوحي الخاتم، ولسان المعجزة العقلية، قال ﷻ: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ

---

[14] أخرجه البخاري في صحيحه في كتاب الانبياء، باب: قول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ﴾، ج3، ص1262، رقم الحديث: 3246.

[15] عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي (المتوفى : 911هـ)، **الإتقان في علوم القرآن**، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم (د.م: الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1394هـ/ 1974 م) ج2، ص202.

[16] يوسف: 2.

مُبِين﴾[17]، وهي لغة البيان والفصاحة، وقال ﷻ: ﴿كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُون﴾[18]، وهي لغة العلم.

فاللغة العربية هي حاملة الرسالة السماوية، ومبلغة الوحي الإلهي، وناشرة الدين الحنيف وسفيرته إلى العالمين، وفاتحة دعوته، ولسان شعائره، وجامعة الأمة، وآصرة المِلَّة، محفوظة حفظ الوحي المنزَّل بها. قال ﷻ: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُون﴾[19]. وهي مُبدِعة الحضارة العربية، وراويتها بين الأجيال، وذاكرتها على مر العصور، وهي لغة الإبداع الأدبي قبل الإسلام، ولغة الإعجاز الإلهي، حمَّلها الإسلامُ رسالتَه العالمية.

حكمة نزول القرآن بالعربية

كان من حِكم نزول القرآن الكريم عربياً أن يفهمه من أنزل عليهم، فكان العرب والمسلمون يتلقون القرآن ويفهمون معانيه بما يمتلكونه من فصاحة وبلاغة، ورغم أن القرآن قد جاء بلغة العرب إلا أنه تضمن معان جديدة لبعض المفردات، فكان رسول الله ﷺ يبينها، كما أن التراكيب القرآنية تدل عليها، ومع توسع البلاد ودخول الأعاجم ظهرت الحاجة للضبط اللغوي لفهم القرآن، فظهر الاهتمام باللغة العربية وعلومها كالنحو والبلاغة والمعاجم، وكان ذلك لصيقاً بالحاجة إلى فهم القرآن، فولدت فروع في علوم اللغة خاصة بالقرآن، كغريب القرآن، وإعجاز القرآن، والوجوه والنظائر، ولم يعد ممكناً الفصل بين دراسة اللغة والقرآن الكريم، فكان للقرآن أثره الواضح في الحفاظ على اللغة العربية وتطوير علومها. ولما كانت اللغة العربية لغة القرآن الكريم، والحديث

---

[17] الشعراء: 193-195.

[18] فصلت: 3.

[19] الحجر: 9.

الشريف، والتراث الإسلامي شعر السلف بمسؤوليتهم وواجبهم نحوها، فماذا فعلوا:

1. بذلوا جهوداً مضنية في تأصيلها وتنقيتها، ووضع قواعدها، وصيانتها من شوائب اللحن والخطأ الذي يذهب بجمالها ورونقها وبهائها.

2. ألفوا الكتب الكثيرة أظهروا من خلالها غيرتهم عليها، وقد ظل الأوائل غيورين على اللغة، ذابِّين عن حياضها، معتزين بخصائصها، حريصين كل الحرص على سلامتها وحفظها من الرطانة العجمية واللكنة العامية.

التفسير وأثره في بقية العلوم والمعارف

مما يعزز الصلة بين القرآن والمعرفة عموماً، الأثر الذي تركه القرآن في مختلف العلوم والمعارف، بل أصبح علم التفسير هو الحاضن الأساسي للعلوم التي ولدت في الحضارة الإسلامية، فعاشت تلك العلوم في كنفه إلى أن بلغت الرشد واستقلت بذاتها، وأصبحت علماً له قوانينه التي لا بد لدارس القرآن من معرفتها.

فلئن ولد التفسير علماً في أحضان علم الحديث، إذ كانت المرويات المتعلقة بتفسير القرآن تمثل جزءاً أساسياً من كتب الحديث، كما أن السنة النبوية بمجملها تمثل مصدراً من مصادر فهم القرآن، فإن الصلة لوثيقة ابتداء بين التفسير وكتب الحديث وعلومه، إذ توثيق الرواية هو الأساس كي تصلح لتفسير القرآن على أساسها، كما أن علم رواية الحديث وتدوينه إنما تأخر ريثما انتشر القرآن مدوناً، فكان مبدأ التوثيق سابقاً في جمع صحف القرآن التي كتبت في حضرة الرسول ﷺ.

أنواع التفسير:

لقد تنوعت وتعددت كتب التفسير كثيراً حتى إنها لا تكاد تقع تحت حصر، وذلك دليل على اهتمام الأمة الإسلامية وانشغالها بكتاب ربها، وبذلها لجهود كثيرة وحثيثة لشرحه من جوانب عديدة. ولقد حصر بعض العلماء كتب التفسير المعروفة في مجموعات بحسب تقسيمات علمية على النحو التالي:

اتجاهات عامة:

1) **التفسير بالمأثور**[20]: أي تفسير القرآن الكريم بالقرآن نفسه أو بالسنة النبوية أو بما نقل عن الصحابة الكرام، ثم بما نقل عن التابعين. ومن هذا القبيل تفسير الطبري، وتفسير بحر العلوم للسمرقندي، ومعالم التنزيل للبغوي، والدر المنثور للسيوطي، وتفسير ابن كثير[21]. يقول صبحي الصالح: "والتفسير بالمأثور إذا اجتمع إليه حسن الاستنباط، وسعة الثقافة، والمقدرة على الترجيح هو أولى التفاسير بالاعتبار، ونحن لا ننصح بالاقتصار عليه، فلا بد لنا لتأويل الآية من الرجوع إلى مختلف التفاسير"[22].

2) **التفسير بالرأي**: وهو تفسير القرآن باجتهاد المفسر معتمداً على أسباب النزول ودلالة كلمات الآيات والناسخ والمنسوخ وغير ذلك من أدوات التفسير[23]. ولا شك أن التفسير بالرأي إن لم يتقيد بشروط المفسر وضوابط التفسير كان مزلقاً خطراً وباباً مفتوحاً للتعصب، بل للخروج بكلام الله عن مراده[24]. ولكن من الكتب المشهورة بالتفسير بالرأي، والمعروفة باستقامة أهلها

---

[20] صلاح عبد الفتاح الخالدي، **تعريف الدارسين بمناهج المفسرين**، (دمشق: دار القلم، ط1، 1423هـ/2002م) ص197-199.

[21] لمزيد من المعلومات يراجع: الذهبي، **التفسير والمفسرون**، ج1، ص147، وانظر كذلك ص161-173.

[22] صبحي الصالح، **مباحث في علوم القرآن**، (بيروت: دار العلم للملايين، ط16، 1985م) ص298.

[23] انظر: الذهبي، **التفسير والمفسرون**، ج1، ص183.

[24] لمزيد من المعلومات يراجع: أبو شهبة، **الإسرائيليات والموضوعات في كتب التفسير**، ص77-78.

وبتقيدهم العلمي وعدم خروجهم عن مستحسن الأقوال وسديد النهج تفسير مفاتيح الغيب للرازي[25]، وأنوار التنزيل للبيضاوي، وروح المعاني للألوسي، ولباب التأويل للخازن[26].

3) **التفسير الفقهي**: ومن كتب التفسير نجد أن هناك كتباً توجهت باهتمامها نحو الآيات المتعلقة بالأحكام الشرعية، مثل تفسير أحكام القرآن للشافعي، وأحكام القرآن لابن العربي، وأحكام القرآن للقرطبي.

4) **التفسير العلمي** وهناك تفاسير اعتنت بالاصطلاحات العلمية في عبارات القرآن، وذلك بالربط بين القرآن وعلم الكون، مثل تفسير طنطاوي جوهري المعاصر، ومثل ما كتبه في ذلك الغزالي أو السيوطي أو أبو الفضل المرسي.

اتجاهات مباشرة:

1) المنهج اللغوي: وهو الذي يعتني **بتفسير ألفاظ القرآن الكريم وبيان معنى مفرداته**، مثل مفردات القرآن للراغب الأصفهاني، وغريب القرآن للسجستاني وغريب القرآن لابن قتيبة الدينوري. وأخرى عنيت

بالنحو والبيان والبديع، أو ما في القرآن من إعجاز لغوي. وقد أفرد بعض المصنفين ذلك بالتأليف، مثل مكي بن أبي طالب والعكبري، والصرخدي والزمخشري، ومثل مصنفات الباقلاني والرماني والرافعي.

2) التفسير البياني والبلاغي للقرآن: هذا المنهج الذي ابتكره بحسب ما تراه عائشة عبد الرحمن بنت الشاطئ أُستاذها أمين الخولي، عبارة عن استقراء اللفظ القرآني في كل مواضع وروده للوصول إلى دلالته وعرض الظاهرة

---

[25] الخالدي، **تعريف الدارسين بمناهج المفسرين**، ص464.

[26] لمزيد من المعلومات يراجع: الذهبي، **التفسير والمفسرون**، ج1، ص205-206.

الأسلوبية على كل نظائرها في الكتاب المحكم، وتدبّر سياقها الخاص في الآية والسورة ثم سياقها العام في المصحف كلّه التماساً لسرّه البياني. وحاصل هذا المنهج يدور على ضوابط، وهي:

أ. التناول الموضوعي لما يراد فهمه من القرآن، ويُبدأ بجمع كل ما في الكتاب المحكم من سور وآيات في الموضوع المدروس.

ب. ترتّب الآيات فيه حسب نزولها ، لمعرفة ظروف الزمان والمكان كما يستأنس بالمرويات في أسباب النزول من حيث هي قرائن لابست نزول الآية، دون أن يفوت المفسّر أنّ العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب الذي نزلت فيه الآية.

ج. في فهم دلالات الألفاظ يُقدّر أنّ العربية هي لغة القرآن ، فتلتمس الدلالة اللغوية الأصلية التي تعطينا حس العربية للمادة في مختلف استعمالاتها الحسية والمجازية.

من مظاهر التكامل بين العِلْمَين:

العربية مصدر رئيس لمدرسة التفسير عند الصحابة:

1. إن من أهم مصادر التفسير عند الصحابة القرآن الكريم، والرسول الكريم ﷺ، والفهم السليم والاجتهاد في الرأي، ثم اللغة العربية والشعر، وقد ورد في الأثر " أحبوا العرب لثلاث : لأني عربي ، والقرآن عربي ، وكلام أهل الجنة عربي".[27]

---

[27] رواه الحاكم في المستدرك (ط. دار المعرفة ، بيروت) 4/ 87 ، وقال الهيتمي : " سنده ضعيف ، انظر كتاب مبلغ الأرب في فخر العرب للهيتمي ، تحقيق مجدي السيد إبراهيم (ط. القاهرة : 1938م) ص 20

وقال الثعالبي معبراً عن هذه العلاقة بين العربية وثقافة المسلمين: " من أحب الله تعالى ، أحب رسوله محمداً ﷺ ، ومن أحب الرسول العربي أحب العرب ، ومن أحب العرب أحب العربية ، ومن أحب العربية عني بها.."[28]. فبحفظ الله تعالى كتابه يحفظ العربية، وبحفظ العربية يحفظ كتابه، وبحفظ كتابه يحفظ حفظتهوسنتكلم بإذن الله عن آخر هذه المصادر فقط:

اللغة العربية والشعر: نقل القرطبي عن ابن الأنباري قوله: وجاء عن أصحاب النبي ﷺ وتابعيهم رضوان الله عليهم، من الاحتجاج على غريب القرآن ومُشْكِلِه باللغة والشعر، ما بيَّن صحة مذهب النحويين في ذلك وأوضح فساد مذهب من أنكر ذلك عليهم. من ذلك ما حدثنا عُبيد بن عبد الواحد بن شريك البزاز، قال حدثنا ابن أبي مريم، قال: أنبأنا ابن فروخ قال: أخبرني أسامة قال: أخبرني عكرمة أن ابن عباس قال: إذا سألتموني عن غريب القرآن فالتمسوه في الشعر، فإن الشعر ديوان العرب[29].

كان ابن عباس – رضي الله تعالى عنهما– أول من خطا بالتفسير من دائرة المأثور وحده إلى دائرة الاستعانة بلسان العرب فيما لم تتعرض له المأثورات،

---

[28] الثعالبي ، فقه اللغة وسر العربية (ط. القاهرة : 1938م) ص 1 .

[29] أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي شمس الدين القرطبي، **الجامع لأحكام القرآن**، تحقيق: هشام سمير البخاري، (الرياض: دار عالم الكتب، 1423 هـ/ 2003 م) ج1، ص24. وانظر: علي بن حسام الدين المتقي الهندي، **كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال**، (بيروت: مؤسسة الرسالة، 1989م) ج3، ص1421. وانظر: أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب الماوردي البصري، **النكت والعيون**، تحقيق: السيد بن عبد المقصود بن عبد الرحيم (بيروت: دار الكتب العلمية، د.ت)ج1، ص38. وانظر: محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي، **التحرير والتنوير**، (بيروت: مؤسسة التاريخ، ط1، 1420هـ/2000م) ج1، ص20.

خلال القرن الأول. ومن هنا بدأ التكامل الحقيقي الفاعل بين اللغة العربية والتفسير.

وقد استعان الناس -من وقت نزول القرآن- باللغة العربية لفهم عبارته، إلا أنه عند ابن عباس قوي هذا الاتجاه، وقد كان الدافع لهذا حاجة الناس للتفسير في عصر ابن عباس الذي كثر فيه المسلمون الجدد، وأيضا لضعف اللغة العربية وبعد مستواها عن لغة القرآن، ويعتبر هذا-بلا شك- إضافة جديدة إلى التفسير على مقتضى المأثورات. وكان ابن عباس يُسأل عن الشيء بالقرآن، فيقول فيه هكذا وهكذا، أما سمعتم الشاعر يقول كذا وكذا[30]. وعن عكرمة عن ابن عباس، وسأله رجل عن قول الله ﷻ ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾ [المدثر: 4] قال: لا تلبس ثيابك على غَدْر، وتمثل بقول غَيْلان الثقفي:

فإني بحمد الله لا ثوب غادر ----- لبست ولا من سوءةٍ أتقنع[31].

وسأل رجل عكرمة عن الزنيم قال: هو ولد الزنى، وتمثل ببيت شعر:

زنيم ليس يعرف من أبوه --- - بغِـــيٌّ الأم ذو حسب لئيم[32].

ولا يفهم من هذا أن استخدام عنصر اللغة لم يكن قائما قبل بن عباس فالقرآن الكريم عربي اللفظ والعبارة، وإن كان عالمي العقيدة والشريعة، فليس الإسلام إقليميا إلا من حيث اللغة العربية التي نزل بها لأن الرسول ﷺ عربي، والله تبارك وتعالى يرسل كل رسول بلسان قومه، وإلى ذلك الإشارة بقوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾[الرعد: 4].

---

[30] القرطبي، **الجامع لأحكام القرآن**، ج1، ص24. وانظر: محمد بن سعد بن منيع أبو عبدالله البصري الزهري، **الطبقات الكبرى**، تحقيق: إحسان عباس، (بيروت: دار صادر، ط1، 1968م) ج2، ص367.

[31] القرطبي، **الجامع لأحكام القرآن**، ج1، ص24.

[32] أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري، **الجامع لأحكام القرآن**، ج1، ص: 24-25.

كان من ميزات التفسير في عصر الصحابة الاعتماد على اللغة العربية والشعر في توضيح المعاني، ثم فشت طريقة العناية بالعنصر اللغوي إلى جانب المأثورات، بعد أن أضيفت إليها بعض المعالجات البلاغية التي أخذت دائرتها تتسع شيئاً فشيئاً، حتى غلبت على العنصر اللغوي، وإن لم تهمله في كثير من كتب التفسير التي كانت تعرف في هذ القرن بكتب «معاني القرآن» وهي لا تخرج في حقيقة أمرها عن كونها كتب تفسير تعتمد في المرتبة الأولى على اللغة في تفسير عبارة القرآن الكريم.

ومن هذه المصنفات: كتاب «معاني القرآن» لمؤلفه يحيى بن زياد بن عبد الله بن منظور الديلمي مولى بني أسد « أو بني منقر» أبو زكريا، المعروف بالفراء: إمام الكوفيين، وأعلمهم بالنحو وفنون الأدب كان يقال: الفراء أمير المؤمنين في النحو، توفي سنة سبع ومائتين من الهجرة.

العربية شرط رئيس من شروط المفسر

يقول السيوطي في الإتقان: "يجوز تفسير القرآن لمن كان جامعا للعلوم التي يحتاج إليها المفسر ، وهي خمسة عشر علماً:

أحدها: اللغة؛ لأنه يعرف بها شرح مفردات الألفاظ ومدلولاتها بحسب الوضع.

الثاني: النحو لأن المعنى يتغير ويختلف باختلاف الإعراب، فلا بد من اعتباره.

الثالث : التصريف لأن به تعرف الأبنية والصيغ.."[33].

---

[33] السيوطي، **الإتقان في علوم القرآن**، ج2، ص213.

وإلمام المفسر بهذه العلوم مهم غاية الأهمية لكونه من تمام العمل، وعليه يترتب كماله وإتقانه على الوجه المطلوب، كما لا يجوز لمن لا يملك ثقافة نحوية ولغوية واسعة أن يقدم على تفسير كتاب الله.. يقول مجاهد: "لا يحل لأحد يؤمن بالله واليوم الآخر أن يتكلم في كتاب الله إن لم يكن عالماً بلغات العرب"[34].

ويُروى أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : "لا يُقرئ القرآن إلا عالم بلغة العرب.."[35] والذي دفع أمير المؤمنين عمر أن يقول هذه المقالة ما روي أن أعرابياً قدم إلى المدينة المنورة في خلافة أمير المؤمنين عمر فقال: من يقرئني مما أنزل على محمد ﷺ، فأقرأه رجل سورة "براءة" فقال: "أنَّ اللهَ برئ من المشركين ورسولِـه" بالجر فقال الأعرابي: "أوقد برئ الله من رسوله؟ إن يكن برئ من رسوله فأنا أبرأ منه". فبلغ عمر رضي الله عنه مقالة الأعرابي فدعاه فقال: يا أعرابي، أتبرأ من رسول الله؟ فقال يا أمير المؤمنين إني قدمت المدينة ولا علم لي بالقرآن فسألت من يقرئني فأقرأني هذا سورة براءة فقال: (أنَّ اللهَ برئ من المشركين ورسولِـه) فقلت: "أوقد برئ الله من رسوله؟ إن يكن برئ من رسوله فأنا أبرأ منه". فقال عمر رضي الله عنه ليس هكذا يا أعرابي، فقال: كيف هي يا أمير المؤمنين؟ فقال: ﴿أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُه﴾ [التوبة: 3] فقال الأعرابي: وأنا والله أبرأ مما برئ الله ورسوله منه. فأمر عمر رضي الله عنه ألا يقرئ القرآن إلا عالم باللغة.." [36].

وكان الأصمعي يقول: "تعلموا النحو فإن بني إسرائيل كفروا بكلمة، قال الله – عز وجل – يا عيسى أنت نبيٌّ وأنا ولَّـتُـك، بتشديد اللام معناها أوجدتك

---

[34] الزركشي، **البرهان في علوم القرآن**، ج2، ص292.

[35] نزهة الألباء ص:8. وانظر: محمد علي الصابوني، **صفوة التفاسير**، ج1، ص353.

[36] نزهة الألباء ص:8. وانظر: القرطبي، **الجامع لأحكام القرآن**، ج1، ص24.

وخلقتك فخففوها، فصار كفراً.." [37] فمعرفة اللغة والإلمام بقواعد النحو يعين المفسر على معرفة المعنى المراد والغرض المقصود.

روى عكرمة عن ابن عباس قال: ما كنت أدري ما قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ﴾[38]، حتى سمعت ابنة ذي يزن الحميري وهي تقول: "أفاتحك" يعني أقاضيك[39] .. وقال أيضاً: ما كنت أدري ما فاطر السموات والأرض حتى أتاني عربيان يختصمان في بئر فقال أحدهما: أنا فطرتها يعني ابتدأتها[40].

وجاءه رجل من هذيل فقال له ابن عباس: ما فعل فلان؟ قال: مات وترك أربعة من الولد وثلاثة من الوراء. فقال ابن عباس: ﴿ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ﴾ [هود: 71]. قال: "ولد الولد .."[41]. وبهذا تتضح العلاقة الوطيدة بين التفسير وعلوم اللغة وأنها إنما نشأت بينهما عندما احتيج إلى ضبط القراءة، والخوف على القرآن الكريم من اللحن والخطأ.

العربية قاعدة مهمة من قواعد التفسيـــــــر

إن من المهام الموكولة لعلم التفسير البحث عن الدلالة اللغوية للنص الشرعي وبيانها، لأنّ التفسير يعني الكشف والبيان، والمفسر الأول للقرآن الكريم

---

[37] معجم الأدباء 71/1 ، 72. وانظر: محمد بن حبان البستي أبو حاتم، **روضة العقلاء ونزهة الفضلاء**، تحقيق : محمد محي الدين عبد الحميد، (بيروت: دار الكتب العلمية، 1397هـــ/1977م) ص221.

[38] سورة الأعراف: 89.

[39] الزركشي، **البرهان في علوم القرآن**، ج1، ص293.

[40] محمد الأمين بن محمد المختار بن عبد القادر الجكني الشنقيطي (المتوفى : 1393هـــ)، **أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن**، (بيروت: دار الفكر، 1415هـــ/1995مـــ)ج6، ص277.

[41] الزركشي، **البرهان في علوم القرآن**، ج1، ص293. وانظر: عبد الرحمن بن الكمال جلال الدين السيوطي، **الدر المنثور**، (بيروت: دار الفكر، 1993م) ج4، ص452.

هو النبي ﷺ وقد نزل عليه القرآن وكلف ببيان معانيه وأحكامه لقوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: 44] والتفسير النبوي للقرآن يدخل ضمن إطار التفسير التشريعي، ويملك خصائصه نفسها من حيث الإلزام، ويختلف عن التفسير الفقهي أو التفسير القضائي الذي يصدر من القضاة والمجتهدين ويخضع ذلك التفسير لقواعد الاجتهاد.

وأول ما يجب البحث عنه في مجال التفسير القواعد التفسيرية التي تساعد على معرفة الدلالة اللغوية للنصوص التشريعية وقد اهتم علماء الأصول بدراسة القواعد اللغوية لأنها أداتهم المباشرة لمعرفة معاني الألفاظ ودلالاتها ومن الطبيعي أن يكون التساؤل الأول مطروحاً حول الطرق التي تثبت بها اللغة من حيث دلالتها على معانيها.

ربط التفسير بالبلاغة العربية:

ليس عبثاً أن ربط الزمخشري بين القدرة على التفسير والبراعة في علمي البيان والمعاني، يقول صاحب الكشاف: "لا يتصدى منهم أحد لسلوك تلك الطرائق، ولا يغوص على شيء من تلك الحقائق، إلا رجل قد برع في علمين مختصين بالقرآن، وهما: علم المعاني، وعلم البيان، وتمهل في ارتيادهما آونة، وتعب في التنقير عنهما أزمنة.."[42].

فإذا عرفنا أن التقديم والتأخير في مبحث من مباحث علم المعاني الذي هو أحد أقسام علم البلاغة وإذا عرفنا ما له من أثر على المعنى، نعلم حينئذٍ مدى الالتصاق بين علم المعاني وعلم التفسير.

---

[42] أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي، **الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل**، تحقيق: عبد الرزاق المهدي (بيروت: دار إحياء التراث العربي، د.ت) ج1، ص43.

فليس تقديم المفعول ﴿إِيَّاكَ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: 5] إلا لمعنى أفاده هذا التقديم، وهو القصر والتخصيص[43]؛ لذلك كان تفسير الآية: نخصك وحدك بالعبادة والاستعانة، ولم يقولوا: نعبدك ونستعينك... وفرقٌ بين التفسيرين.

وأقول: إن هذه العلوم متشابكة، لا يمكن الفصل بينها بحدود عازلة، فبعضها يؤدي إلى بعض، ويكمل بعضها بعضاً، فليس لنا أن نكتشف إعجاز القرآن الكريم إنْ لم يكن لدينا علم بمعانيه، ولن نستطيع أن نعرف دقائق هذه المعاني إن لم يكن لدينا علم بالبلاغة.

وأظن أن صلة علم البلاغة بعلم النحو لا يدع مجالاً للشك بأن أهم دعامة من دعائم علم التفسير هي البلاغة؛ ذلك أن أحداً لا يشك بأن التفسير يقوم على علم النحو وأن من أهم شروط المفسر أن يكون على دراية بهذا العلم.

وإذا ثبتت الصلة بين علم المعاني وعلم النحو، وإذا ثبتت أهمية علم النحو للتفسير، يثبت ــ بلا شك ــ مدى الصلة الوثيقة التي بين علمي التفسير والبلاغة.

فلا يجوز إقصاء البلاغة عن التفسير، وإبعادها عن وظيفتها في الوقوف على الخصائص التعبيرية للآيات الكريمة واستخلاص معانيها

ويعد كتاب (معاني القرآن) للفراء من أحد المحاولات المبكرة التي تمثل ربط التفسير باللغة العربية، وهو من أقدم التفاسير اللغوية التي نقلت إلينا، وهو يمثل لجوانب المذهب الكوفي في النحو، وقد خاض الفراء في كتابه هذا في فنون العربية جميعاً، وإن غلب عنصر النحو على غيره، محتجاً بأن أساس التفسير هو الاعتماد على اللغة، وهي منضبطة في تراكيبها بضابط النحو، كما أبرز فيه كل

---

[43] ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج1، ص440.

قدراته العلمية حين انبرى لتوضيح معاني القرآن، ومع أنه ملأ مصنفه هذا بالاصطلاحات والأقيسة والتعليلات اللغوية، إلا أنه يتسم بالسهولة واليسر، الأمر الذي قرب مضامينه للقارئ[44].

ومما يذكر في هذا المجال أن كتاب معاني الفراء قد حظي كذلك بذكر القراءات واهتم بالاستشهاد لها، والاختيار منها وتوجيه ما يختاره. كما ظهر كذلك التزام الفراء بالمأثورات في التفسير، ولم يتجاوزها إلا عند بيان اللغات المختلفة، وبيان اشتقاقات اللفظة.

والمعالجة البيانية الواضحة كثيرة في «معاني القرآن» فالفراء يتكلم عن الكناية، وذلك عند تفسيره لقول الحق تبارك وتعالى: ﴿حَتَّى إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُم﴾[فصلت: 20] ، فيقول إن المقصود بالجلود هنا الكناية عن الذكر[45].

وتناول الفراء التشبيه لقول الله تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا﴾[الجمعة: 5]، قال رحمه الله:"شبه اليهود، ومن لم يسلم إذ لم ينتفعوا بالتوراة والإنجيل. وهما دليلان على [صدق] النبي ﷺ بالحمار الذي يحمل كتب العلم ولا يدرى ما عليه"[46]. كما تحدث عن المجاز بصورته البلاغية في قول الله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ

---

[44] أبو الطيب عبد الواحد بن علي اللغوي الحلبي (ت: 351)، **مراتب النحويين**، تحقيق وتعليق: د. محمد أبو الفضل إبراهيم، (القاهرة: مكتبة نهضة مصر، د.ت) ص143.

عدد الصفحات: 156

[45] محمد بن الحسين الفراء، **معاني القرآن**، تحقيق: أحمد يوسف نجاتي، ومحمدعلى نجار، وعبدالفتاح إسماعيل شلبى، (القاهرة: دار المصرية للتأليف والترجمه، د.ت) ج3، ص155.

[46] المصدر نفسه، ج5، ص107.

أَلِيمٍ﴾[التوبة: 3] . فقال: "والبشارة فى الأصل على المفرح والسار؛ فإذا جمعت فى كلامين: هذا خير: وهذا شر جاز التيسير فيهما جميعا"[47].

وتناول الاستعارة تلميحاً عند تفسيره لقول الله جل شأنه: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلاَ يَسْتَطِيعُونَ﴾[القلم: 42] ، فقال: يريد: القيامة والساعة لشدتها، واستشهد على ذلك بقول الشاعر:

كشف لهم عن ساقها --- وبدا من الشرّ البراح[48].

مكانة الشعر في تفسير القرآن الكريم

يعد الشعر أحد المصادر التي أمدت العربية بأفصح التراكيب وأبلغها، وأحسن الأساليب وأجزل المعاني، وأثره واضح في ترسيخ أصول العربية وقواعدها وضبط أقيستها، فلقد هيَّأ لها مادة واسعة في سبيل تأصيل مفردات اللغة، وبيان نسيج تركيبها وأوجه استعمالاتها. وقد عني به علماء العربية خدمة للقرآن الكريم، فقد أُنزل القرآن الكريم بلسانٍ عربيٍّ مبين، ودارت حول هذا الكتاب المجيد العلوم الإسلامية من تفسير ولغة ونحو وصرف وبيان وبلاغة.. واعتمدت هذه العلوم في تأسيسها وإنشائها على كلام العرب من نثر وشعر، ومن استقرائه وُجد علم النحو وعلم الصرف وعلم اللغة، وكان الشعر العربيّ المحتجّ به من أخطر أُسس هذه العلوم شأناً وأكثرها دوراناً على الألسنة، وفي بطون الكتب، وكان له قبل الإسلام منزلة سامية لدى القبائل العربية، كما كان للشعراء مرتبة رفيعة. فجعله من تصدى لتفسير القرآن الكريم عونًا له على فَهْم مُعْضِلات القرآن، والوصول إلى معانيه، ومن هنا صار الشعر وسلية ذات شأن، أصبحت تساهم مساهمة فاعلة في تفسير القرآن، وخدمة جوانبه المتعددة.

---

[47] المصدر نفسه، ج5، ص207.

[48] المصدر نفسه، ج5، ص129.

ولعل العناية بلغة الشعر والاستشهاد بها على غريب القرآن ومفرداته وبيانه، ليست مسألة طارئة على الحياة العلمية في عصر التابعين، وإنما كانت هذه العناية مألوفة عند الصحابة رضوان الله عليهم؛ فقد أورد الزمخشري رواية عن الخليفة الراشد عمر ﷺ، حيث سأل وهو على المنبر عن قوله تعالى: ﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ﴾ [النحل: 47] ، فقام إليه شيخ من هذيل فقال: هذه لغتنا، التخوُّف التنقُّص. فسأله عمر: هل تعرف العرب ذلك في أشعارها ؟ قال: نعم، قال الشاعر:

تَخَوَّف الرَّحْلُ منا تامِكًا قَرِدًا ... كما تَخَوَّفَ عودَ النَّبْعَة السَّفِنُ

فقال عمر: أيها الناس، عليكم بديوانكم لا يضلُّ. فقالوا: وما ديواننا ؟ قال: شعر الجاهلية فإن فيه تفسير كتابكم[49].

وقام حَبْرُ الأمة ابن عباس رضي الله عنه في ميدان الاستشهاد بالشعر على غريب القرآن بجهد متميز، وكان له مجالس واسعة تعقد لهذا الغرض، ويَفِدُ إليه الناس من كل حدب وصوب ، وكان يقول: "إذا سألتموني عن غريب القرآن فالتمسوه في الشعر؛ فإن الشعر ديوان العرب، فإذا خفي علينا الحرف من القرآن الذي أنزله الله بلغة العرب رجعنا إلى ديوانها فالتمسنا معرفة ذلك منه"[50].

وتحتفظ مصنفات علوم القرآن بحوار علمي مطولٍ جرى بين أحد زعماء الخوارج وهو "نافع بن الأزرق"، وابن عباس ﷺ، فقد قال نافع لصاحبه نجدة

---

[49] أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي، **الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل**، مصدر سابق ج2، ص568. وانظر: أحمد بن محمد بن المهدي بن عجيبة الحسني الإدريسي الشاذلي الفاسي أبو العباس، **البحر المديد**، (بيروت: دار الكتب العلمية، ط2، 1423هـ/2002م) ج4، ص38.

[50] السيوطي، **الإتقان في علوم القرآن**، ج2، ص67.

بن عويمر: "قم بنا إلى هذا الذي يجترئ على تفسير القرآن، والفتيا بما لا عِلْمَ له به" فقاما إليه فقالا: "نريد أن نسألك عن أشياء من كتاب الله ﷻ فتفسِّره لنا، وتأتينا بمصداقه من كلام العرب، فإن الله ﷻ إنما أنزل القرآن بلسان عربي مبين".

قال ابن عباس رضي الله عنه:" سَلاني عمَّا بدا لكما تجدا علمه عندي حاضرًا إن شاء الله".

فقال نافع: يا ابن عباس أخبرنا عن قول الله ﷻ: ﴿عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ عِزِينَ﴾ [المعارج: 37]. قال: "عزين: حلق الرفاق". قال: وهل تعرف العرب ذلك؟ قال: نعم أما سمعت عبيد بن الأبرص يقول:

فجاءوا يُهْرَعون إليه حتى ... يكونوا حول مِنْبره عزينا[51].

قال نافع : يا ابن عباس أخبرني عن قول الله ﷻ: ﴿وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ﴾ [المائدة: 35].

قال: الوسيلة: الحاجة. قال : أوتعرف العرب ذلك ؟ قال: نعم أما سمعت عنترة العبسي وهو يقول:

إنَّ الرجالَ لهم إليك وسيلةٌ ... إن يأخذوك تكحَّلي وتَخَضَّبي[52].

---

[51] عبد الله بن عباس، **مسائل نافع بن الأزرق لعبد الله بن عباس – رضي الله عنه وعن أبيه – غريب القرآن في شعر العرب**، (د.م: د.ن، د.ت) ص28.

[52] المصدر نفسه، ص29. وانظر: السيوطي، **الإتقان في علوم القرآن**، ج2، ص69؛ وانظر: عبد الرحمن بن الكمال جلال الدين السيوطي، **الدر المنثور**، (بيروت: دار الفكر، 1993م) ج3، ص71؛ ولمزيد من المعلومات، انظر: حافظ بن أحمد حكمي، **معارج القبول بشرح سلم الوصول إلى علم الأصول**، تحقيق: عمر بن محمود أبو عمر، (الدمام: دار ابن القيم، ط1، 1410هـ/1990م) ج2، ص851؛ وانظر: ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج18، ص102.

ويمضي نافع يسأل، وابن عباس يُفَسِّر ويستشهد على تفسيره ببيت من الشعر في مئتين وخمسين موضعًا من القرآن.

وبذلك يمكننا أن نَعُدَّ تفسير ابن عباس للقرآن على هذا النحو نواةً للمعاجم العربية، فقد بدأت الدراسة في هذا الميدان من ميادين اللغة بالبحث عن معاني الألفاظ الغريبة في القرآن الكريم. وبذلك تكون دراسة القرآن الكريم والرغبة في تفسير غريبه وفهم مقاصده سببًا رئيسًا من أسباب العناية بالشعر العربي.

ومع مرور الأيام تزايدت الحاجة إلى هذا الاتجاه، وتابع هذا المنحى علماء العربية والتفسير، ولا غرابة أن تحفل كتب إعراب القرآن وتفسيره بمادة غزيرة من الشعر العربي الفصيح، فقد تجاوزت الشواهد الشعرية في كل من تفسير "البحر المحيط" و"جامع القرطبي" و"الدر المصون" مثلًا أكثر من خمسة آلاف بيت.

ففي قوله تعالى: ﴿كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ﴾ [البقرة:19]، يستشهد أبو حيان في "البحر المحيط" بقول الشاعر مستدلاً على كلمة (صيّب):

حتى عَفاها صيّب ودقه ... داني النواحي مسبل هاطل[53].

وفي قوله تعالى: ﴿اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي﴾ [طه:31]، يستدل القرطبي بقول الشاعر:

شددت به أزري وأيقنت أنه ... أخو الفقر من ضاقت عليه مذاهبه[54]

---

[53] محمد بن يوسف الشهير بأبي حيان الأندلسي ، **تفسير البحر المحيط**، تحقيق: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود – الشيخ علي محمد معوض، شارك في التحقيق د.زكريا عبد المجيد النوقي، د.أحمد النجولي الجمل (بيروت: دار الكتب العلمية، ط1، 1422هـ/2001م) ج1، ص218.

[54] القرطبي، **الجامع لأحكام القرآن**، ج11، ص193.

إن موقف خصوم الإسلام وأعدائه ظهر جلياً منذ بداية الاستعمار الأوروبي ثم العالمي، فهم الذين أدركوا الترابط الوثيق والآصرة المحكمة بين الإسلام واللغة العربية وتيقنوا من مدى تمسك المسلمين بدينهم عقيدة وعبادات ومعاملات ومنهج حياة باعتباره دينا متماسك الحلقات ـــ فأخذوا يعملون على إضعاف اللغة العربية والتقليل من أهميتها في حياة المسلم الدنيوية سبيلا إلى إضعاف المسلمين، وتجلى ذلك في عدة مظاهر منها:

أولاً: تقليص حصصها وعدم تطوير أساليب تعليمها وقصر تدريسها في المنظومة التربوية، على العلوم الدينية وعدم اعتمادها في الاختبارات والامتحانات باعتبارها مادة ثانوية تكميلية[55].

ثانياً: إشاعة أن اللغة العربية لغة قاصرة، وأنها ليست لغة متطورة، وليست لغة قادرة على استيعاب المواد العلمية من طب وهندسة ورياضيات وبيولوجيا وفيزياء[56]. وصدق حافظ إبراهيم في قصيدته التي وسمها بـ: اللغة العربية تنعى حظها حين قال:

وَسِعْتُ كِتَابَ الله لَفْظَاً وغَايَةً --- وَمَا ضِقْتُ عَنْ آيٍ بهِ وَعِظَاتِ
فكيفَ أَضِيقُ اليومَ عَنْ وَصْفِ آلَةٍ --- وتنسيقِ أَسْمَاءٍ لمُخْتَرَعَاتِ

---

[55] http://www.startimes.com/f.aspx?t=10102399. Accessed on 20-11-2011.

[56] http://www.startimes.com/f.aspx?t=10102399. Accessed on 20-11-2011.

أنا البحرُ في أحشائِهِ الدرُّ كَامِنٌ --- فَهَلْ سَأَلُوا الغَوَّاصَ عَنْ صَدَفَاتِي[57]

ثم زاد الاتهام للغة القرآن من قبل أعداء العربية فقالوا: إنها ليست لغة عقلية أو فكرية أو ثقافية وحضارية، وإنما كانت لغة متخصصة في الصلاة والصوم والزكاة والحج والفقه والتفسير والحديث وعموم العبادات والشعائر الدينية. رغم أنه تعالى قال: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [يوسف: 2]، وقال تعالى في آية أخرى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الزخرف 3]. هذا يعني أن اللغة العربية هي لغة العقل والمنطق والفكر والثقافة والحضارة.

إن التمزق السياسي وافتقاد الهوية والضعف الحضاري والإحساس بالدونية الذي يسري في جسد الأمة اليوم يعكس بشكل واضح أثره على اللغة العربية الفصيحة، حتى إن كثيراً من أبناء الجيل الحاضر صدق بشكل سهل أن اللغة العربية لغة ضعيفة لا قدر لها ولا مكانة في عالم التطور التكنولوجي السريع. ويمكننا القول أنه لو كان العرب أقوياء لكان العربية قوية أيضاً، ولو كانت الأمة الإسلامية قوية في ذاتها، عزيزة في إسلامها وكتاب ربها لكان ثقتها بلغتها وبلغة القرآن أقوى وأشد تماسكاً، ولكنه الضعف الذي أدى إلى التفاخر في التخاطب بلغة الانجليز والأمريكان على حساب العربية لغة القرآن.

ناسين أن اللغة قد اكتسبت من الوحي والقرآن الكريم مقومات البقاء، فقيمها ثابتة وتعاليمها أبدية، ومرتكزاتها خالدة بخلود القرآن المحفوظ من قبل رب السماء. تبقى الإشارة في سياق هذا الحديث إلى أن اللغة – أية لغة – هي

---

[57] http://www.fnkazem.net/vb/showthread.php?t=28508. Accessed on 20-11-2011.

وعاء لقيم الأمة المعبر عن مشاعرها وأحاسيسها، كما أنها أوعية تفكيرها وعقد تواصلها[58].

ويخلص البحث إلى النتائج التالية:

ثبت من خلال هذا البحث المتواضع أن التكامل بين علمي اللغة والتفسير أصيل، ومن هنا بيّن العلماء أن التفسير يتوقف في معرفته على عدد من العلوم هي: علم اللغة والنحو والصرف والاشتقاق والمعاني والبيان والبديع والقراءات وأصول الدين وأصول الفقه وأسباب النزول والقصص والناسخ والمنسوخ والفقه والأحاديث المبينة لتفسير المجمل والمبهم، إضافة إلى علم الموهبة الذي يورثه الله تعالى لمن يعمل بما يعلم من إخلاص النية وصحة الاعتقاد ولزوم سنن الدين.

1. أثبت هذا البحث أن دلالة الخطاب الإلهي لا يدركها ويتذوق معانيها ومغازيها إلا من امتلك ناصية اللغة، وعلى الذين يدعون إلى قراءة جديدة للقرآن وتجديد الفهم لــه في ضوء الدراسات اللسانية الحديثة أن يتقنوا أولا لغة القرآن، فالترجمات العديدة لمعانيه والتي يطبعها عدم الإتقان لا تفي بدلالاته ولا تعبر التعبير الحق عن كنهه وأسراره ولا تنفذ إلى أعماق القارئ بما يقوى الاعتقاد ويحبب إليه الدين الإسلامي ويرغبه فيه.

2. إن علم البلاغة هو الطريق إلى فهم التفسير، وإن علوم اللغة العربية على مستوياتها كافةً هي السبيل الوحيدة لمعرفة المراد من كلام الله تعالى؛ والمفسرون كلهم أهلُ لغةٍ وفصاحةٍ وبيان، وكل من تصدى للتفسير فلا بدَّ أن

---

[58] http://www.fnkazem.net/vb/showthread.php?t=28508. Accessed on 20-11-2011.

يحتمل من زاد العربية ما استطاع إلى ذلك سبيلاً، وإنما يكون اجتهاد كل مفسر من المفسرين بحسب حصيلته من علوم العربية، من نحو وصرف وبلاغة وأصوات وتجويد وقراءات وحفظ للشواهد الشعرية؛ لأنها ديوان العرب، وإلمام بأصل وضع الكلام العربي، وطرق وضعه في السياق المناسب؛ وكلٌّ ذلك يأتلفُ ليشكِّلَ وحدةً موضوعيةً وبنائيةً ولغويةً واحدةً متَّسقةً لا شذوذ فيها، ولا غريب ولا مستوحش، بل ينتظم في عقد درريٍّ ليشكل ذلك المعنى الدقيق، وهذا من أهم خصائص القرآن الكريم.

3. إن اللغة العربية على جميع مستوياتها والقرآن صنوان لا يجوز أن نفصل بين هاته العلوم وبين التفسير؛ لأنها هي الوسائل الضامنة لاستمراره والمؤدية إليه والدالة عليه، وبدونها لا يمكن أن نفسر آية واحدة من كتاب الله ﷻ.

4. إن اللغة هي جسم التفسير، وعليه فإن العلاقة بينهما علاقة وطيدة لا يمكن فصل أحدها عن الأخر. ولا يوجد فاصل زمني بين العلمين. فاللغة إذن هي جسم التفسير والمعنى الناتج هو روحه، ولا يمكن الفصل بين جسم وروحه. واللغة القوية تثري التفسير، فبقدر ما نملك من مفردات قوية وأفكار لغوية بقدر ما نملك من تفسير قيم نافع.

5. إن المتتبع والدارس لموضوع اللغة والتفسير، يجد نفسه أمام موقف يرى بأن علاقة اللغة بالتفسير هي علاقة تكاملية لا انفصام فيها، حيث إنه لا يمكن أن يوجد أحدهما بغياب الأخر.

والحمد لله رب العالمين.